أفراح الحياة وآلامها

للأستاذ عباس محمود العقاد

تلقيت من بغداد رسالة لصاحب التوقيع الفاضل جاء فيها :

« ... بينما كنت أقلب هذا السفر الجليل — يسألونك — وجدتني أقف أمام جملة فى تعقيبكم على كتاب — مع أبى العلاء فى سجنه — وهى :

« ... ما زلت أعتقد وأزداد مع الأيام اعتقاداً أن بغض الحياة أسهل من حب الحياة ، وأن الأدوات النفسية التى نلمس بها آلام الحياة أعم وأشيع وأقرب غوراً من أدوات النفس التى نلمس بها أفراح الحياة العليا ومحاسنها الكبرى . فالفرح أعمق من الحزن فى رأيى ولا مراء . أما الفرح فهو القدرة والانتصار »

فهلا تفضل سيدى بشرح هذه العبارة ... الخ .

الكاظمية جعفر آل ياسين

والموضوع يستحق التفصيل ؛ لأننا فى الشرق لا نزال قادرين على الحزن عاجزين عن الفرح ، أو قادرين على التشاؤم عاجزين عن التفاؤل . وربما كان فرضاً أقرب إلى السلوب منه إلى الثبوت . فكثير من أفراحنا ناشىء من قلة الفكر وقلة المبالاة ، وقليل منها ناشىء من فهم أسباب الكمال ومعارض الجمال فى هذه الحياة .

والألم أسهل من السرور لأن أدوات الألم ميسرة للطفل والجاهل مقصورة على الإنسان .

وأدوات الألم هى الحواس الجسدية ، وهى كافية لإشعار صاحبها بجميع المؤلمات والأوجاع التى يشتمل عليها عالم الحس المتسع لجميع الأحياء ، ومنها الإنسان .

كل حى يستطيع أن يشعر بشوكة الوردة ، لأن الشعور بها لا يحتاج إلى أكثر من جلد وأعصاب .

ولكن الجلد والأعصاب لا تكفى للشعور بجمال الوردة ونضرتها ومعانى الصباحة والحسن التى تتراءى بها للعيون والأذواق ، وتتمثل بها فى عالم الخيال .

وكل حى يستطيع أن يرى ظواهر الأشياء ويسمع ظواهر الأصوات ، فإذا دخل هذا الحى دار الآثار أو دار الفنون الموسيقية ، رأى وسمع كل ما يرى بالعيون ويسمع بالآذان . ولم يجد فيما رآه أو سمعه مدعاة إلى السرور أو مدعاة إلى تكرار الزيارة باختياره .

ولكن إذا ملك من أدوات النفس حاسة فوق حاستى البصر والسمع — وهى حاسة الذوق — عرف مواضع الفرح فيما رآه وسمعه . ونظر فى دار الآثار إلى جمال الصناعة ودلالة المعانى التاريخية الخالدة ، وسمع فى دار الفنون الموسيقية آيات التعبير المنسق وأسرار العاطفة الخفية التى تترجم عن نفسها بلغة الألحان .

كل إنسان يستطيع أن يخسر فى الحياة ، لأن الخسارة فيها مضمونة للعاجز الذى لا يحسن الفهم ولا يحسن العمل . فكل عاجز « قادر » على أن يأخذ نصيبه من خسائر الحياة بغير عناء ، وقادر على أن يأخذ الألم مع الخسارة ، لأنه يأتى معها بغير دعوة !

ولكن القدرة على الانتصار فى الحياة لا تشيع بين الناس شيوع العجز والقصور .

نعم إن القادرين قد يخسرون والعاجزين قد يكسبون . ولكن هذا لا ينفى الحقيقة التى يعرفها القادرون والعاجزون ، وهى أن القدرة أندر من العجز وأن أدوات العجز ميسرة للأكثرين ، وأدوات القدرة لا تتيسر لغير القليل .

***

كل إنسان يستطيع أن يجد فى تمثال المرمر وسيلة إلى الألم ، لأنه يحصل على الألم بصدمة فى الرأس ، والقدم . ولكنه لا يحصل على السرور الذى يوحى به التمثال إلا إذا أدرك محاسن الفنون وعرف صاحب التمثال وما عمله فى حياته وما استحق به هذا التخليد بين قومه وقادرى فضله وجهاده .

ولا يعنينا هنا أن تكون الأفراح فى الحياة أكثر من الآلام أو تكون الآلام فيها أكثر من الأفراح .

وإنما يعنينا أن أدوات الألم ميسرة للأكثرين ؛ وأن

الأفراح التى تحتاج إلى فهم غير فهم الظواهر حقيقة مقررة لا يدركها غير القليل .

وصحيح أن النفس إذا ارتفعت شعرت بآلام لا تشعر بها النفوس الوضيعة وأدركت مواطن للشر لا تدركها الطبائع المغلغلة والضمائر العمياء ؛ ولكن هذا لا يغير الحقيقة التى أسلفناها ! وهى أن الألم فى جملته لا يحتاج إلى أدوات نادرة بين الأحياء ، وأن كثيراً من المخلوقات تستطيع أن تتألم وهى فى المرتبة الدنيا من مراتب الحياة ، ولا تستطيع أن تفرح إلا إذا توافرت لها صفة « وجودية » غير مسلوبة ، وهى على الأقل صفة الصحة واعتدال المزاج .

ونعمم هذه الحقيقة فنقول إن المؤلمات سلوب وإن المفرحات ثبوت . لأن الألم يأتى من الفقد ، والفرح يأتى من وجود شىء يُفرح أو يصدر منه الفرح . ولا حاجة بالإنسان إلى أداة للفقد والخسارة ، ولكنه يحتاج إلى أدوات كثيرة للإيجاد والتحصيل .

وقد مضى على الشرق زمن لم نسمع فيه غير الشكاية والحزن فى شعره ونثره ، وغير الشكاية والحزن فى مواعظه وخطبه ، وغير الشكاية والحزن فى جملة أحواله وأعماله . ولم يكن ذلك الزمن الذى عمت فيه الشكاية والحزن زمن القدرة والعمل بل زمن الفقد والكسل . لأن الأدوات النفسية التى نلمس بها آلام الحياة أعم وأشيع وأقرب غوراً من أدوات النفس التى نلمس بها أفراح الحياة العليا ومحاسنها الكبرى .

والطفل يبكى فى اللحظة الأولى من حياته ، ولكنه لا يعرف الابتسام قبل بضعة أشهر . لأنه فى البكاء لا يحتاج إلى أكثر من صوت وهواء . ولكنه يحتاج قبل الابتسام أن يعرف وجه أمه وأبيه وأن يدرك العطف بينه وبين أمه وأبيه .

***

وإذا تركنا شعور الضرورة إلى شعور المشيئة والاختيار تبين لنا أن الإنسان سريع إلى كشف النقائص والعيوب فى الناس بطىء فى كشف المحاسن والمزايا . بل مغالط فيها بعد كشفها ومكابر فى الشهادة بها لأصحابها .

فهو محجوب عن المحاسن باختياره وبغير اختياره :

محجوب عن محاسن الدنيا ما لم يتهيأ لها بأدوات الذوق والمعرفة وعمق البديهة وسمو الخيال .

ومحجوب عن محاسن الناس ، لأنه يحب أن يستأثر بالمحاسن لنفسه أو يحب أن يبالغ فى تعظيم مزاياه وتصغير مزايا غيره . فلا يحتاج إلى أكثر من الأنانية العمياء ليجهل فضائل الآخرين ومظاهر الكمال فى المخلوقات ؛ ولكنه يحتاج إلى النبل والإنصاف ورحابة الصدر ليعرف تلك الفضائل وينعم بمرآها ويوفيها حقها من العطف والإعجاب .

فهو فى معرض الدنيا معصوب العينين حتى ترتفع العصابة عن عينيه فيتعلم بعد جهل ويقتدر بعد قصور ، ويغتبط بجمال من يراه بعد أن كان لا يراه .

وهو فى معرض الحياة البشرية يضع كفيه على عينيه باختياره ولا يرفعهما حتى ترتفع عن ضميره عصابة الأثرة والجحود ، وينفذ إليه شعاع النور من عالم الحق والإنصاف .

لهذا صح أن يقال إن أدوات الآلام أسهل وأعم من أدوات الأفراح ، وإن كثيراً من الناس قادرون على الشعور بالألم فى أعم حالاته ، ولكنهم لا يقدرون على الشعور بجميع الأفراح ولا بجميع المرضيات .

وإذا طبقنا هذه الملاحظة على أبى العلاء وجدنا أنها تنطبق عليه وعلى زمانه ، وتدل فى حالته أيضاً على سهولة أسباب الألم وصعوبة أسباب الفرح بالنظر إليه وبالنظر إلى الزمان الذى عاش فيه .

فهو حسير كسير فى عقر داره ، وزمانه زمان الفتن والحروب وزمان التقلب والنفاق ، وغاية الأمل فيه أن يسلم من الشرور أو يتغلب عليها بشرور أكبر منها ، وكلاهما بلاء على الكريم وبلاء على اللئيم ، وقضاء يلوذ منه الحائر بالقبوع أو بالقنوع .

***

وبعد فيكفى أن نعلم أن الإنسان مطالب بتحقيق أسباب الفرح وغير مطالب بتحقيق أسباب الألم ، لنعلم أن الفرح يحتاج إلى الأداة وأن الألم لا يحتاج إلى أداة ، بل إلى نجاة !

عباس محمود العقاد